إنصافاً ودفاعاً عن طرابلس...

الدكتور عبد الغني عماد

في كل مرة تزداد حدة التجاذب السياسي في لبنان وترتفـع وتيـرة التـشنج والاتهامات في الخطاب الإعلامي بين الفرقاء المتصارعين، تتجه الأنظـار نحـو طرابلس، حتى باتت المدينة وكأنها الساحة المفضلة عند البعض لإرسال الرسائل وتسجيل النقاط وممارسة الضغوط.

بدايةً لا يمكن تجاهل حقيقة أن شيئاً من هذا كان يحدث خاصةً فـي الـسنوات الخمس الأخيرة إثر اغتيال الشهيد رفيق الحريري. لكن الاختلالات الأمنية التـي شهدتها المدينة لم تكن بلا سياق أو بلا تاريخ، بل كانت وقـائع جـرى توظيفهـا وتغذيتها وإيقاظها لتكون ساحة المدينة صندوق بريد للرسـائل الـضاغطة تـارةً ولتسجيل النقاط تارةً أخرى.

ولعل طبيعة المدينة وواقعها السياسي والاجتماعي من جهة، وما شهدته مـن أحداث مؤلمة ومحزنة منذ العام ١٩٧٥، والمعالجات الخاطئة والشوائب الخطيـرة

التي لحقت بكل الصراعات التي تأتت عن الخلاف الـسوري الفلـسطيني عـام ١٩٧٦، ثم عن المرحلة السورية وما تخللها من شوائب، ثم مرحلة هيمنة حركـة التوحيد على المدينة، وانفجار الصراع على خط جبل محسن باب التبانة من جهة والتي انتهت كما هو معلوم بدخول القوات السورية إلى طـرابلس أثـر معـارك دامية، انتهت بمجزرة ولم تنته بمصالحة، والذي نتج عنه ان بقيت الأحقاد نائمـة سنوات وسنوات إلى أن أعاد البعض الى إيقاظها بعد أحداث ٧ أيار ٢٠٠٧ حيث شهدت المدينة جولات عنف مؤسفة إنتهت بمصالحة أشرف عليها الـرئيس سـعد الحريري وشارك فيها جميع قيادات المدينة، تلك كانت تجربة مريـرة وصـفحة سوداء يتذكرها الطرابلسيون في وجهيها: الأول الظالم (يوم اسـتبيحت وقـصفت لشهر كامل بحجة تحريرها من العرفاتيين)، والثاني الظلامي (يوم زجـت باسـم الإسلام في صراع خارج زمانه ومكانه).

مع ذلك لا يزال ملف جبل محسن والتبانة ملفاً مقلقاً وشـائكاً، وقـد أصـدرت الأسبوع الماضي مجموعة الأزمات الدولية تقريراً طويلاً ومفـصلا حـول هـذا الموضوع، ويحاذر الكثيرون من الغوص فيه بصراحة وعمق، واليوم لا زال هذا الباب مدخلاً لإثارة مخاوف المدينة كلما احتدم الصراع، ولا يشك أحد أن مفاتيحه سياسية بامتياز، إلا أن إقفال هذا الملف المحزن في المدينة وإزالة خطوط التماس المفتعلة والتي يتم افتعالها كل حين تحتاج إلى قرار سياسي وأمني حازم من جهة،

كما تحتاج إلى خطة إنمائية شاملة تنصف هذه المناطق التي صنفت بإنها الأكثـر حرماناً في لبنان، حيث يتساوى أبناء جبل محسن والتبانة في الحرمان. لقد أصبح واضحاً عند الجميع إن الخيار الصحيح هو الخيار التنموي، فهو الذي يدفع بطاقات أبناء منطقة جبل محسن وشباب التبانة تحو الانخراط بمشروع الدولـة والـولاء للوطن، والاندماج بالنسيج الوطني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، بعيداً عـن الخطابات الطائفية والمذهبية، إن النهوض بمناطق الحرمان والفقر ومكافحة الأمية والتخلف والقيام بمشاريع اقتصادية وتنموية وتـوفير فـرص العمـل والرعايـة الاجتماعية والصحية، هو المدخل الصحيح لإزالة خطوط التماس المفتعلة، ولتأكيد العيش الواحد بين أبناء المدينة الواحدة.

كذلك لا يزال الملف الإسلامي المرتبط بصورة المدينة ملفاً مخيفاً ومرعباً عند البعض وخاصةً وأن بعض الإعلاميين أصبحوا وبسذاجة يشبهون طرابلس بقندهار لبنان، بل أن بعض السفارات ذهبت إلى تحذير رعاياها من زيارة طرابلس.

في الواقع هناك الكثير من المبالغات عند بعض الإعلاميين الذين يـأتون مـن خارج المدينة وهم على عجلة من أمرهم يجولون في احيائهـا القديمـة وأزقتهـا الداخلية منبهرين بهذا العالم الذي يسوده الفقر والتهميش والحرمـان، فيلتقطـون بعض الظواهر الهامشية ليصنعوا منها حدثاً إعلامياً لا يعبر في الحقيقة عن روح المدينة وأصالتها وحقيقتها ومزاجها.

- هل طرابلس مدينة جاذبة للإسلاميين فعلاً؟

سئلت مرة في إحدى المحاضرات هل طرابلس مدينة جاذبة للإسلاميين؟ فقلت أن طرابلس لطالما كانت جاذبة لليساريين وللعروبيين وللإسلاميين ولكل أشـكال المعارضة للنظام السياسي الذي أهملها وهمشها وكأنها عقاب تاريخي على رؤوس الطرابلسيين منذ الاستقلال.

مع ذلك قد يكون هوية غالبية أبناء طرابلس الإسلامية المؤمنة مصدر تـشجيع وحضانة للإسلاميين، لكن هذا على أرض الواقع يحتاج إلى نقاش.

نعم طرابلس مدينة مؤمنة لكنها أيضاً محافظة وتقليدية، وهـي بـنفس الوقـت ليست مدينة التطرف والتكفير، بل هـي مدينـة الإيمـان والاعتـدال والتـسامح والوسطية، وربما هذا ما يجعلها مدينة جاذبة للإسلاميين عموماً.

فربما يظنون أن هذه البيئة هي التي يمكن أن تتجاوب مع المشروعات الحزبية والحركية الإسلامية أكثر من غيرها، وللأسف فإن الكثير من المحللـين يظنـون ويعتقدون نفس الشيء، لكن الواقع أثبت فشل هذا التحليل طيلة أكثر من أربعـين سنة منذ أن بدأت أولى إرهاصات العمل الحزبي الإسلامي في المدينة.

فالمدينة منذ الاستقلال حرمت من أبسط حقوقها كعاصمة ثانية، وجرى تهميش منظم لدورها وموقعها في الجمهورية الناشئة، واستمر ذلك مع الجمهورية الثانيـة بعد الطائف مضافاً إليه تسلط مخابراتي وأمني طال حياتها السياسية، وهـي فـي

الذاكرة التاريخية لأبنائها مدينة العلم والعلماء وقلعة العروبة والإسلام. ومع ذلك لم تخفِ طرابلس تطلعها يوماً نحو حداثة حرمت منها، ونحو تنميـة طالبـت بهـا، ومشاركة سلبت منها، وهي عبرت عن هذا في مناسبات عديدة. لذلك هي محافظة وتقليدية لكنها مجتمع يعيش ديناميات التغير والتحول ومـا يـستدعيه ذلـك مـن إشكاليات على مستوى وعي الهوية والإصالة والمعاصرة.

- **<u>الإنطباع أقوى من الحقيقة</u>**:

وللأسف أحياناً يكون الإنطباع أقوى من الحقيقة، ويقع ضحية الإنطباع بعـض الإعلاميين والمراسلين، الذين وبدون تدقيق يعممون صوراً جزئية وعابرة لا تمثّل تاريخ المدينة ولا هويتها، حتى باتت طرابلس عند البعض مخيفة وكأنهـا مدينـة طالبانية يسكنها التطرف والتعصب، وهذا ظلم إعلامي يضاف إلى ما تتعرض له طرابلس من بعض الذين يمارسون الإعلام على طريقة القنص والصيد.

والحقيقة أنه ليس في طرابلس للإسلاميين بكل فروعهم تلك السطوة أو الهيمنـة التي يتخيلها البعض، فهم ما استطاعوا الحفاظ على مركز نيابي حصلوا عليه فـي انتخابات ١٩٩٢ وفي ظروف استثنائية، ولا استطاعوا الحفاظ على حصتهم فـي المجلس البلدي والمجالس الإختيارية التي تدنت إلى أدنى مـستوى، فـضلاً عـن دورهم الهامشي في كل المعارك الإنتخابية لنقابات المهن الحرة (محامين، أطباء، مهندسين، صيادلة...)، فضلاً عما تبقى من مؤسسات المجتمع المـدني ودورهـم

المتراجع على المستوى الطلابي والجامعي. لا يعني هذا الكلام التقليل مـن دور وحجم الإسلاميين ولكنه دعوة إلى عدم المبالغة وإلى الواقعية.

كما أنه لا ينبغي التخويف من الإسلاميين، فأغلبهم قد انخرط في الحياة السياسية والإنتخابية منذ أن أتيح له المشاركة بحرية، فقد تعرض العديد من هؤلاء إلى قمع وظلم في مراحل سابقة، وها هي حركات وتنظيمات إسلامية في طرابلس تـصبح أكثر تلبنناً وتكيفاً مع الواقع اللبناني، بل حتى سلفيو طرابلس هـم فـي غـالبيتهم يتّبعون السلفية الدعوية ويركزون على العمل المؤسساتي والوقفي والتربوي علـى عكس الصورة الغير موضوعية التي تروج عنهم إعلامياً فـي الخـارج. يكفـي الإطّلاع على الوثيقة السياسية الإسلامية ٢٠٠٥ التي وقّع عليهـا جميـع القـوى الإسلامية وصولاً إلى المؤتمر الموسع الذي عقد برعاية مفتـي طـرابلس مالـك الشعار ٢٠١٠ ليقرأ المتابع في بنودهما مدى التطور الذي حدث فـي الخطـاب السياسي والفكري عند هذه القوى والحركات، وقد كشف موقـف طـرابلس مـن ظاهرة فتح الإسلام صدق وحقيقة غالبية هذه القوى، فالعناصر الطرابلسية التـي تورطت مع هذا التنظيم كانت قليلة جداً وأغلبها تعرض للتضليل، رغـم أن ذلـك التنظيم كان يقول أنه جاء لنصرة أهل السنة في لبنان.

ومع ذلك لا يمكن تجاهل حقيقة التنوع السياسي والإجتمـاعي والطـائفي فـي المدينة، ولا يمكن القفز فوق ما فيها من مؤسسات وجمعيات ونقابات تمثّل أطياف

المجتمع المدني الذي أثبت عند كل منعطف أنه ينبذ التطرف بكـل أشـكاله، وأن الخطّ العام الذي يلتزم به هو خطّ الإعتدال والتسامح الذي مثّل على الدوام هويـة المدينة، ولا يمكن التعامي عما يجري على أرض الواقع من نمو لمـا يمكـن أن نسميه "المجال الطرابلسي العام" حيث الإختلاط فيه بين أبناء المدينة يتّسع مداه في كل اتجاه حاملاً في جوفه كل ما يتناقض مع مظاهر التطرف والعنف.

ومع ذلك يجب التنبيه إلى أن مناطق التهميش الإقتـصادي والإجتمـاعي فـي طرابلس والضنية وعكار تشكّل محاضن طبيعية لإستقطاب الشباب، ولنمو دعوات التطرف وسلوكيات العنف والإنحراف الإجتماعي، وليس فـي هـذا خـصوصية طرابلسية بقدر ما فيه من خصوصية سوسيولوجية لها علاقة بالقهر الإجتمـاعي والبطالة والأمية وغياب مشاريع التنمية وتكافؤ الفرص.